من التاريخ الإسلامي

ابن الحب

للأستاذ علي الطنطاوي

(الطائف) ... تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم — كما تروى الأساطير[1] — سارت من ربوع الشام بينابيعها وجداولها وبساتينها ورياضها وزهرها وثمرها فطافت حول الكعبة ، ثم تسلقت الجبال حتى استقرت في أعالي جبل (غزوان) ، وهجمت على سرير من السحاب حالة بالسهول والأنهار والنعمة والخصب ، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة ، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة ...

(الطائف) ... مدينة الحجاج ...

* * *

نامت (الطائف) في تلك الليلة الساكرة القمراء ولفّها الليل بغلالة رقيقة ، ينفذ من خلالها شعاع القمر فيبدي محاسنها الفاتنة ، ويحسر عن بيوتها المختفية بين الأشجار كأنها أسراب من العشاق قد تغلغلت في هذه البساتين ، لتفيء إلى عزلة سعيدة ، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي ، وتحلم بلقاء جديد .. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم ، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال الفاتن في هذه الجبال الكاسية بالعشب والزهر ، ولم يبق في المدينة عين ساهرة ... إلا عين سيد غريب يذكره هذا الليل الساجي ، وهذا البدر المطلّ ، بلده وحبيبه فيؤرّقه الشوق ، فهو يطوف بهذه المرابع ويده على قلبه ... وعيوناً أخرى خلال هذه البيوت البعيدة التي تسكن فيها الرذيلة وراء هذه الأضواء الكليلة التي ترتجف من الخجل ، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في استحياء أجساداً عارية تطفح بالشهوة ... ينتظرن عابراً يسوقه القدار إليهن فيمنعه اللذة ، ويطعمنه من لحمهنّ ... ليعطيهن دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء ، ولا يكون نصيبهن بعد ذلك إلا أرغفة من الخبز معجونة بالدم والشرف والوحل ...

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الاسلام !

فلما مال ميزان الليل ، وغلبهن التعب ، ولم يطرقهن طارق ، تسللن إلى بيوتهن فنمن على فرش العار ، إلى الصباح ، ليستقبلن من يقذف به القدر اليهن من الرجال ... ولم يبق إلا فتاة صغيرة ، تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء ، تفيضان بالطهر ... رغم أنهما في وجه بغيّ ، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه الرقيقتان ، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنان الخالدة ، غير أنها لا تذوى ولا تذبل ، وأنها من لحم ودم ، وأنها تشمّ بالفم ، وتلمس بالشفاه ... وأنف إغريقي جميل كأنه أنف فينوس ، وشعر أشقر متموج يبرق

(١) راجع (الياقوت) في (معجم البلدان)

تحت أشعة القمر كبريق الذهب ، وجسم أبيض لدن ، له لون العاج ، ولين الحرير ، وسحر الحب ، وفعل الخمر ... فهي وردة نمت في غير أرضها فزادت إلى جمالها جمال الندرة ، وهي ملك هبط من سمائه فوقع في هذه البقعة الملتاثة بالرجس . ولو أن للحياة أسلوبنا نحن البشر وتفكيرنا لكان مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تضمها إلى صدرها الفياض بالتضحية والاخلاص ، أو زوج يذيقها الحبّ والوفاء ، ويكتم سرّ هذا الجمال أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة ، والأيدي المجرمة ... ولكنّ الحياة لم تر لها إلا هذا المكان الذي تعرض فيه الأجسام البشرية لكل وحش بشري ... أفرأيت الزهرة اليانعة تلقى بين ألسنة اللهيب ؟ والحمل الضعيف يرمى بين أنياب الذئاب ؟ كذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل وَبْش فظ غليظ من ذئاب البشر وكلابهم ... هي زهرة ، ولكنّ الرياح العاتية قطفتها من غصنها ثم ألقتها بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكنّ النهر الجياش اختطفها من منبتها ثم رمى بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والبشر ... هكذا صنعت بها الحياة . إن للحياة أسلوباً لا نعرفه ، ولا تصل إليه مدارکنا البشرية ...

لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذي يعبث بعينيها الناعستين من غير نعاس ... تأمل أن تجد امرأ يدفع إليها المال الذي فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه الحياة الداعرة ... فنزلت على إرادته ، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع ... وهل تستطيع له مقاومة وهي أمته وملك يمينه ، حملها من وطنها البعيد فنهل من كأس جمالها حتى شبع وروى ، فصبّها على قارعة السبيل تلغ فيها الكلاب ... إنه يصرّفها كما يصرّف دابته ، ويصنع بها ما يصنع بثوبه يلبسه أو يرميه في الطريق ، أو يهديه إلى صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ... وذكرت عرضها الذي مزقته مطامع سيّدها — وجسدها الذي أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل شكل ولون ، فانطلقت تبكي ... وذهبت هائمة على وجهها ، حتى ابتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هي بشبح يسير في شعاع القمر ، متشحاً بثوب أسود لا يبين منه شيئاً ، فظنته من رجالها ... ومشت إليه ... فلما رآها ارتاع وارتد ، وعجب أن يرى فتاة صغيرة كأنما هي حوراء من حور الجنان تسير عارية تحت ذوائب الليل ... وسألها : مالك أيتها الفتاة ؟

— مالي ؟ ماذا ترى فيّ ؟

فلم يجب وجعل يحدق فيها تحديقاً شديداً ، مأخوذاً بجمالها ، وهي تنظر متعجبة لأنها كانت من السذاجة والصفاء بحيث لا تدرى جمالها وفتنتها ، ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ، وإنما وجدتهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ... فما بال هذا الرجل ؟

ومرت دقائق حسبها كل منهما دهراً طويلاً ، ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن تنال برودة الليل من هذا الجسم الالدن الناعم الذي خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟

فأجابته هذا الجواب الذي ألفته حتى ما تفكر في معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها تؤديه كآلة جامدة :

— بعشرة دراهم ... هل تدخل ؟

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظبي أفلت من شبكة الصياد ، وتبعها حزيناً متألماً يفكر في هذا الجمال الطاهر كيف تقوى الرذيلة على تدنيسه ، ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع أن يسمو بها إلى أفق الطهر والعفاف ... حتى بلغت الدار ، فدخلت ودعته إلى الدخول ثم أغلقت الباب ، ووقفت بين يديه تنظر ما يريد ... يا لهذه المسكينة التي عاشت وسط الرجس ولكن قلبها ظل نقياً طاهراً ، لأن الخطيئة لم تصل إليه ... فلم يبد الرجل حراكاً ، فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون . ماله لا يصنع ما يصنع سائر الرجال ، يأخذونها عارية كشعاع القمر ، فيعبثون بها ، ويسخرونها للذاتهم كأنما هي أداة لا تعقل ولا تشعر ، ويضطرونها إلى فتح صدرها وشفتيها لقبحهم ووحشيتهم وأقذارهم ، ثم يلقونها بعد أن تكل أجسادهم الجشعة ، كما يلقي المرء بزفالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة ممزقة خالية من الماء ...

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه ينزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ، فيبدو من ورائه شبابه وجماله ، وثيابه الحريرية الغالية ، ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه ، وينطلق يسائلها عن أصلها ومنبتها في لطف ودعة ... ويلقي في أذنيها أحاديث الحب السامي التي لم تسمعها من قبل ، فيحيي في نفسها الطهر والفضيلة ، ويغسلها من أدران هذه الحياة الداعرة ، فتحس كأن جناحيها اللذين حطمتهما يد الأيام قد نبتا من جديد ، وتحس بأن هذا السيد الذي هبط عليها هذه الليلة هبوط ملك الرحمة ، يطير بها في آفاق لم ترها بعد . ولكنها آفاق واسعة كلها نور وعطر ...

وتذوق المرة الأولى لذة القبلات المسولة ، التي تمتزج بها النفسان وتتحدان ، وتعرف حرارة الصدر المحب ، وحلاوة العناق اللذ ... فتلقي بنفسها على صدره ، وتمنح للمرة الأولى قلبها وجسمها معاً ..

* * *

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور ، تغسل الأرض بالنور ، بعد أن خلعت عنها رداء الظلام . فوقفت الفتاة تنظر إليه وقد أحست بأن هذا الحب يغسل نفسها ويطهرها ، وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته ، وتنبهت في نفسها ذكريات ماض بعيد حسبته قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد أكسبه الحب يقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضي تتدافق على نفس الفتاة فتبصر صباها الطاهر كثلج الصباح ، وحياتها في تلك الخمائل البعيدة ، في أرض فارس ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات ضعيفة . لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها .. ثم تفكر في حياتها الحاضرة ، التي تخوض حمأتها الدنسة ، وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التي مست جسدها ، وعانقته وقبست منه لذتها ، فيعروها ارتجاف شديد ، وتوارى وجهها بكفيها حياء وخجلا ... ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ؛ فتعزم على التوبة لتصل ماضيها البعيد الطاهر ، بمستقبلها الذي طهره هذا الحب الوليد ...

* * *

وبزغت الشمس ولم ينقض للفتاة جفن . فدخلت منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها

يبتغى أن تمنحه اللذة فتتأمل فى وجهه فإذا هو بكر الثقفى أشد شباب الطائف وأقواهم ، فيرعبها مشهده ، ويروّعها كأنها هى عذراء لم تفارق خدر أمها ، فتبتعد عنه مضطربة . . . فيعجبه ذلك منها ، ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ فى الاقتراب منها ويأخذ بيدها ، فتحسّ لمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها ، فيقشعر جسمها كله ويقف شعر رأسها وتصرخ به :

— ابتعد عنى ! فيضحك الرجل ويكركر من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه . .

فتعود إلى صراخها . . .

— ماللغزال نافراً هذا اليوم ... تعالى

— قلت لك دعنى ... دعنى ... لست لك

فيصيح بها ساخراً : لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول ؟ ألزوجك ؟

ويوغل فى الضحك ويضمها إليه فتلطم وجهه وتوغل فى الصراخ ، فيغضب الرجل ويقسو عليها

— ألم تقل لك إنها لاتريدك ؟

صوت هادىء متزن ، جعل بكراً يرسل الفتاة ويلتفت إليه ، فيرى سيداً كامل الشباب ، موفور الرجولة ، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنى ، وتطمئن الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقذها . ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أى رجل هو بكر ، ذلك الذى لايقوم له شاب فى هذا البلد ولا كهل ، وتنتظر نهاية هذا العراك ، وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها

ويصيح به بكر مغضباً :

— من أنت أيها الرجل الذى يتجرأ على بكر الثقفى ؟

ويرفع يده عليه ، ولكن الرجل يقبض على ذراعه ، ويقول له هادئاً :

— أتحب أن تعرف من أنا ؟ اقترب لأخبرك

ويلقى فى أذنه ذلك الاسم الكبير ، فتسقط يد بكر على جنبه ، ويعتذر لهذا السيد ، ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عمّن يبيعه اللذة .

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التى أعدّها لها ...

* * *

وعقد الحب رباطه المقدس بين قلبيهما ، فأصبحت هى حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة يكون معها ، واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة فى عينيها ، وملأت نفسه هذه الفتاة التى ظهرت له فجأة ، كما تظهر الشمس فجأة من وراء الجبل فتملأ الوادى نوراً وحياة ...

لقد نسى هذا السيد المجد الذى ينتظره فى مكة والمعركة الكبرى التى ترقب فيه قائدها ومدبرها .

ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق ...

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه ، والفضيلة والرذيلة ، والطموح والحسد ، ولكن لا يمحوه شىء ...

الحبّ أحجيّة الوجود ، ليس فى الناس من لم يعرف الحبّ ، وليس فيهم من عرف ماهو الحبّ ..

الحبّ مشكلة العقل التى لاتحلّ ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى ...

الحبّ أضعف مخلوق وأقواه ، يختبئ فى النظرة الخاطفة من العين الفاتنة ، وفى الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية ، وفى البسمة المومضة من الثغر الجميل ... ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً ، فيبنى الحياة ويهدمها ، ويقيم العروش ويثلها ، ويفعل فى الدنيا الأفاعيل ...

* * *

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرهما، ويكشف لها من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها، فكان هذا التكاشف طريق الوحدة، والفناء فى الحب، حتى إذا لم يبق لأحدهما سرّ يكتمه عن الآخر لم يبق له (أنا) ينفرد بها عنه ...

لقد طهرها بحبّه، وصهر ماضيها الملوث فأحاله بنار الهوى جوهراً خالصاً، ورفعها من الحضيض الضيق الذى كانت تتقلب فى ظلماته إلى سماء عالية رحيبة. وليس كالحب إذا خلص مطهراً للنفوس، ومصلحاً للأمم، وحافزاً إلى الفضيلة ...

الحب مدرسة الله الكبرى، وقانونه الأقدس

لولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض بنور ربها، ولا منحتها الحياة والنور. ولولا الحب ما التف الغصن على الغصن فى الغابة النائية، ولا عطف الظبى على ولده فى الكناس البعيد، ولا حنا الجبل على الوادى المتعزل، ولا أمدّ الينبوع الجدول الساعى نحو البحر. ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة ...

* * *

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها الأولى، فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المطلة على البساتين القريبة، والقفار البعيدة، فيشاركان العصافير غناءها، والورد ضحكه، والنسيم همسه، والنور طهره وصفاءه، فيتحدثان ويتناغيان كحمامتين ضمّهما وكر، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة يغنون أغانيهم الساحرة أو ينفخون فى الناي تلك النغمة الفاتنة التى يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جمالها، فاذا انبسطت الشمس وتصرّمت الظلال أووا إلى الدار فعاشا روحاً واحدة في جسمين ... حتى إذا وقفت الشمس للوداع خرجا مرّة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس، فينظر كل منهما بأربع عيون، ويهمس فى أذنيها وهى فى حضنه، صدرها إلى صدره، وخدها مستريح إلى خده، بأناشيد الحبّ العذبة فتسمعها بروحها وتجيب عنها بلمة عينيها، حتى تغيب الشمس ويلقى الليل ذوائبه السود على الدنيا فيعودان

* * *

الحب ربيع الحياة الزهر، ولكن الربيع ينتهي ويأتى الصيف بحرارته، والخريف بشحوبه، والشتاء بزمهريره، ولابد أن ينتهى الربيع! أيام الحب كأس مترعة بالخمرة الآلهية، ولكن الكأس تفرغ ويحسّ الانسان بالظمأ، ولابد أن تفرغ الكأس!

عاشا فى ليالى الحب ما عاش الصيف، فلما بدت طلائع الخريف وغمرت الطائف وصخورها، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد.. لم يبق بدّ من الفراق ... إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة، يخوض قومه لظاها أفيبقى فى نجوة من لظى الحرب، وهو السيد الشريف والفارس المعلم؟ أيتقلب قومه فى غمار المعركة المشتعلة ويتقلب هو فى أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الخمر؟ لو أن رجلا من قريش لم يكن فى العير ولا فى النفير رضى بهذا الفرار لكان له سبّة الدهر؛ فكيف بسيد العير وبطل النفير؟ لم يبق بدّ من الفراق ... فليمزق قلبه

شطرين ، فيدع شطراً فى هذه الأعالي المخضرّة الساحرة يحلم بالحبّ ، ويتجرع غصص الذكريات ، ويذهب بالشطر إلى ميادين المجد ليألم فى سبيل الوطن ويحمل جرحه الدامى ليأسو جرح أمته ، ويضحى بالحب فى سبيل الواجب ...

وتهيأ للوداع ...

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحبّ ، فيودعها ذكرياته وقلبه حتى انتهى بهما المطاف إلى هذه الصخرة المشرفة على الصحارى النائية ، فجلس إليها وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفى وجهه فى عنقها وخلال ثيابها ، ويشمّ عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام الفراق . وأخذت هي بنشوة الحب فجعلت تشد يدها عليه وتعبث بشعره ، وتريح رأسها على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحبّ يصنع المعجزة التى ينتظرها المحبون أبداً ... أن يمحو هذه (الأنا) و (الأنت) ويجعل العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة ، وترى وهى بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين ...

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الفاتنة فرأته يحدق فيه ، وفى عينيه دمعة ، فراعها ما ترى ، وانطلقت تسائله ...

— اسمعي يا فتاتى ...

— أنا سامعة ؟

— أريد أن تغفرى لى ؟

— ومم تستغفرنى أيها الحبيب ؟

— لقد كان حبّي وبالاً عليك . لقد كانت حياتك ساكنة ساجية كليل الطائف ، فملأها حبي زمهريراً وبرقاً ورعداً . لقد كانت مثل اللجة الهادئة ، فهجت فيها الأمواج . لقد أورثتك الألم ... والألم حصاد الحبّ ، فهل تغفرين لى ؟

أى ألم يا حبيبى ؟ أنا سعيدة ... سعيدة جداً .

وانطلقت تقبله فى فمه ...

— ولكن الواجب يدعونى إلى الذهاب ...

— بودّى ألاّ أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ، ما ذا يصنع الانسان يا حبيبتى ؟ .. أتحبين أن يقال أنى فررت من المعركة ؟

— وأنا ؟

— سأعود إليك ، أحلف لك أنى سأعود ...

— وهذا الذى فى أحشائي ؟

— ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أأنت حامل ؟

— نعم

— آه . إبنى !

واستطاره الفرح فأقبل يضع قبلاته من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه

— ليتنى أبقى حتى أراه . ليتنى أبقى . هـذا إبن الحبّ ...

— إبق ، إبق ، أتوسل إليك ، ماذا تخشى ؟

— أخشى العار ، انها سبّة الدهر ، فدعينى أذهب . سأعود إليك ، أفتنسينى إذا انا ذهبت ؟ أتلقين بنفسك فى أحضان غيري ؟ لا لا ، إنك لن تنسى . إنك ستقومين على تربية ابننا . ستنشئينه على العظمة والمجد ، ليكون رجلاً يحمل قسطه من إرث أبيه ... وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه . دعيه ينشأ مستقلا كالزهرة المنبثقة في الجبل ، ويعش حراً كالطائر الذى يغرد على كل غصن . لا تخبريه من هو أبوه ، بل أعدّيه لفهم هذه الحقيقة ، حتى إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوا لحمل هذا الاسم

كنت أنا الذى يخلعه عليه ، وان لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه اسمى ...

* * *

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر فى هذا الطريق الضيق ، الذى يختفى حيناً وراء الصخور ، ثم يظهر ويوالى سيره نحو الرمال حتى غاب عن ناظريها ، فتلفتت تلقاء البلد ، فاذا هى تنكرها وإذا هى لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد ان غابت عنها دنيا الحب فخفق قلبها واضطرب ، وجعلت تنادى حبيبها وتلح في النداء . وتشير إليه وقد غاب عن ناظريها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيباً تيقنت أنها لن تلقاه أبداً . فخرت على وجهها باكية منتحبة

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذى ولد شاباً قوياً ، ولكنه مات طفلا صغيراً وهذا المال الذى أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها وترضى به سيدها ليدعها آمنة مطمئنة إلى حياة شريفة لا تدنسها الرذائل ، فكانت تتألم وحيدة كشمعة تشتعل فى البهو الخالى ، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها. لم يكن لها إلا الحب ، فكانت تعانق الحب فى الليل وتسايره فى الطريق ، وتناجيه فى الصباح ، وتناغيه فى المساء وتصحبه إلى هذه الأماكن التى عرفت فيها السعادة ولكنها لا تجد فى كل ذلك إلا الألم . إن كل ماترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالى السعادة تستحيل إلى آلام ، فيا ليت الانسان لا يذكر ، إذن لما تألم ، إن ذكرى اللذة مؤلمة . وذكرى الألم لا تسر .. أو ليس من أكبر النعم على الانسان أن ينسى ؟ لولا النسيان كانت الحياة لا تطاق !

لقد قوى حبها واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص فى شعاع الشمس ، يلهو بالألاعيب إلى شبح يائس يتأمل فى الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهي ، ولبس ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها فى أمر واحد هو التفكير فى الحبيب الذى أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من الرجال بهذه الصورة التى استقرت فى خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكله الحقيق لما أعجبها !

أرادت أن تغرق غرامها فى لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها فى الصباح الباكر ، لتفيء إلي صلاة عميقة ، فلا تجد فى هذه الآلهة المصنوعة من الحجر ما يثير فى نفسها الورع والخشوع ، وتمثل لها مطرقة النحات الذى صنع هذا الآله ... فتخاف عبادته ، ولا يروقها منها ما كان يروقها وهى صغيرة من نار الدهقان الذى نشأت فى داره ، ولكنها نسيت عبادة هذه النار من زمن بعيد ، فبقيت حائرة لا تطمئن إلى عبادة

ما أشقى المحبين ! يعشون كما يعشى الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم يعيشون فى دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها ، تضيق الدنيا بالمحب إذا جفاه محبوبه حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها ، ويجد فى العش الضيق الذى يلجأ إليه مع محبوبه دنيا واسعة ، ويتألم المحب فى اللذائذ ، إذا لم يذقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة سواد فى عين المحب قاتم إذا لم تنرها مقلتا المحبوب

كان عمل هذه الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التى ولد فيها حبها ونما . فتبكى وتتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوهم أحياناً فتظن

بأن الحبيب حاضر معها . فتهم بعناقه وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة ، فيجب قلبها ويشتد خفقانه ، وتسقط على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدري بها إلا الله ، وكانت تأمل أن يعود فتنظره على الطريق وترقب الدقائق فاذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى منزلها آيسة محزونة ...

وانتفخ بطنها من الحمل ، فباتت تحمل أثقال الحب في بطنها وقلبها ، وعزفت عن الطعام والمنام ، فرق جلدها وتهافت جسدها ، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك حبها ، ومنازل هواها ، فكانت تحيي الليالي ساهرة مؤرقة ، تناجي النجم ، وتسائل الليل عن حبيبها ، وتخاطبه من وراء الصحراء كأنه معها

« أين أنت أيها الحبيب ؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً ، أم أنت بين ذراعي غيري ؟ قد نسيتني ومحوت من نفسك ذكرى هذه البغي التي طهرتها بحبك ، ولكنها لوثت شرفك ومجدك بماضيها الدنس ؟ لقد كان حبك لي نقيًّا كماء السماء ، ولكن شهوتي المضطرمة عكّرت صفاءه ... أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام ، فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء ، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها ، ولكن هذا التراب الذي ظلّ عالقاً به قد غبّر جناحك أيها الصقر ، أفلا تعفو ؟

قد قنعت بك من الحياة ، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت ، ولكن بماذا أقنع وقد خسرتك أنت ؟

أتذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين ، والطير ترتل صلاة المساء ، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء كأنها مريضة غاص رأسها في عشرات الوسائد ، ونحن متعانقان صدري إلى صدرك ، وعيناي إلى عينيك ، وخدي ملصق بخدك ، أقبل عنقك وتمرغ شفتيك بشعري ، ثم نهتني إلى مشهد الغروب ، فطفقنا ننظر إليه مشدوهين ، حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...

أتذكر ... ؟

أتذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة ، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضجتها وصخبها حين نمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الذي يربط بين قلبينا ، تتلفت حولنا فلا نرى إلا جذوع الأشجار المتأنقة ، تتسلسل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها ، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معي ، وهل كنت أبتغي من دنياي أكثر من ذلك ؟ حسبي أنت من الدنيا ... أتذكر ذلك ... ؟

أتذكر تلك الشجرة المتعزلة الوحيدة التي كان لها في تاريخ حبي أجل الآثار ؟ أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها ...

لماذا أذقتني لذة الحب ؟

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها ، أعيش في الظلام ، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهي اللذة ... فلا النور دام ، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام ! »

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت ، لأنه مكتوب في كل قصة غرام ، وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها ؟ وهل تمر ليلة على

بلد فلا ترى فى أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينما ينام الناس آمنين لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شىء لا يدرى به إلا المحبون !

ولبثت الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك فى بطنها ... فذهبت تدفع وحدها ثمن هذه اللذة التى شاطرها متعتها الرجل ...

* * *

واستهل الوليد جميلا كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كثلج الربا ، تبدو فى عينيه كبرياء أبيه ، وجمال أمه ، كما يبدو خيال السماء الصافية فى البحيرة الساكنة ، فتمتلئان بهما كما يمتلئ الجدول بمياه الينبوع الصافى ، ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعى فى مسارب الوادى العميق ...

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، ونذرت له حبها وحياتها ... وعزمت أن تكون له أماً لأنه ابنها ، وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على الكبرياء والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذى أحبت ، ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير ...

وتكامل مثلما يتكامل القمر فى أوائل الشهر فلم يلبث أن صار بدراً فى كل عين ، ونما مثلما ينمو الغصن الغض فى خمائل الروض ، يرتفع فى الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله وزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بعطره كل أنف ، وتزايد كأنه أغنية حب بدأها همساً فى جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء ، فلم تلبث أن صارت أغنية الحب على كل لسان ، ويقوى كأنه الحب ينبثق فى القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً فى كل قلب ... كذلك أصبح هذا الغلام ...

كان ملء العيون والأفئدة ، تمر السنون فلا تزيده إلا ذكاء ونبوغاً ... وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها ، ولكن أمراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة ، ويؤلمه أشد الألم ، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه ... وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولوّن لها الأساليب . فكان يمنعها من أن تخبره إرادة أبيه . فتظل معتصمة بالصمت ... وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدى ! ...

فأزمع أن يكون بفعاله أبا نفسه ... وأن ينزل من هذه الجبال فيغامر فى الحياة ...

* * *

ظل ذلك السيد القرشى يفكر فى الفتاة ويصلها بالمال ويتعرف أخبار ابنه ويقوّم سبيله ، ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له فى حياته مكان. إن على عاتقه عبئاً ضخماً ، إنه يقود إحدى الفئتين فى أعظم معركة عرفها تاريخ الانسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة ... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين المستقبل المنتظر والماضى الذميم ، بين الحضارة والبداوة ... وكان هذا السيد قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فإذا النور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضىء الجزيرة ثم يخرج إلى الشام والعراق ، فترفرف عليها رايات محمد ظافرة منصورة ؛ وإذا أبوسفيان هذا السيد القرشى جندي صغير فى جيش محمد ... ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على الكفاية ، ولا يعرف الطبقات ولكنه يقرّ المساواة . فهبط أبو سفيان ، حتى صار

جندياً ، وارتفع هذا الرجل الذي لايملك نسباً فى هاشم ولا أمية — وليس له جدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فاذا الدعوة التى كانت تكافح لتغلب مكة ، قد استخدمت مكة وأهلها والجزيرة كلها ، فى حرب الأعداء الذين سرقوا حرية الشعوب وعبثوا بتراث الانسانية ، وإذا القرية التى كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبة الأرض ووارثة المدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية فى بلادها . وإذا هذا المسجد الصغير المبنى من الحجارة والطين وسعف النخل ، يغلب الايوان العظيم بشرفاته ودعائمه ، وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ، ومدرسة العالم . . .

فى ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع فى هذا المسجد ، وكان المسجد دار السياسة كما كان دار العلم والعبادة — فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد وقدّم إليهم شاباً لم يروه من قبل يدعى زياداً ليصف لهم هذا الفتح الذى جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان فى أصل المنبر إلى جانب علىّ خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد — ابن الحبّ — وحبس أنفاسه ليصغى إليه ، وقد خاف عليه الفضيحة ، فاذا الفتى الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب ، ويستهوى القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلى :

— (أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟)

— (نعم)

— (أما إنه ابن عمك)

— وكيف ذلك ؟)

— (أنا قذفته فى رحم أمه سميّه)

— (فما يمنعك أن تدعيه ؟)

— (أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد علىّ إهابى[1])

* * *

وذهب أبو سفيان يلقى معاوية ، وقد استيقظت فى نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء سبعة عشر عاماً إلى تلك الفتاة التى أذاقته السعادة ، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علنا ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد ، إن اسم أبى سفيان لا يحمله إلا قائد كبير ، أو وال أو أمير ، فليتربص ولينتظر ؛ ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد فمن هو الذى يحمله هذا السر الذى يضيق به صدره؟ ليس له إلا صدر معاوية ، وذهب يلقى معاوية (كسرى العرب) ...

* * *

إسمع يامعاوية ... أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك ... أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التى جمع الله كبر النفس ، وكرم الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة ، واختلفا ... ونحا كما إلى بعض كهان اليمن ... وجزعت أمك وخافت ، فقال لها عتبة :

— (انى أرى ما حلّ بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك)

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكنى أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب

(١) جلد من التاريخ

ولا آمنه أن يسمى ميسماً يكون على سبّة)

— (قال : انى سوف أختبره لك[1])

وخبأ له خبيئة فعرفها ، ثم قدموا إليه أمك فى نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ، ويقول انهضى ، حتى دنا من أمك ، فقال لها ، انهضى غير متهمة ولا جانية ، (وستلدين ملكا يقال له معاوية[1])

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها ، (فنترت يده وقالت إليك عنى ، فوالله لا حرصنّ على أن يكون ذلك الملك من غيرك[1])، فكانت امرأتى ... وكنت ابنى ...

فاذا صحت بشارة الكاهن ، فاعلم أن لك شريكا فى ذلك الملك ...

فى ذلك اليوم تسمع صوت أبى سفيان أبيك الذي يستصرخك من أعماق قبره ، يرن فى أعماق قلبك ، لترفع ابنه الذى انبثق من قلبه وجهه وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك وإرث أسرتك الماجد ...

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ أتعرف زياد بن عبيد الذى خطب على منبر المدينة بين يدى عمر ، مخبراً بالفتح ؟ ذلك هو ابن أبيك ، ذلك هو (ابن الحب) فاجزنى هل تحفظ وصيتى ؟

— نعم يا أبى نعم

— إذن تقرّ عينى وهى تحت التراب .....

وذهب أبو سفيان يذكر ليالى الحبّ !

على الطنطاوى

(١) جل من التاريخ

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة فى أثمانهـــــا .. جميلة فى ألوانهـــــا

فبادروا بأخذ طلباتكم